(٤)

العبقـريـــة

درج بعض أدعياء العلوم النفسية ، منذ عهد لومبروزو ونيزيت على اعتبار العبقرية لوناً من الشذوذ الذهنى أو المرض ، لظهور العبقرى والنابغ بمظاهر تبدو للسواد الأعظم من الناس عجيبة ومخالفة لما تعودوه من أفراد الجنس البشرى العاديين ، لأن السواد الأعظم افترض الانسان حيواناً كسائر الحيوان ، خلق ليأكل ويشرب وينام ويتيقظ ويتناسل ، بعد أن يولد ويشب ثم يكون رجلا فكهلا فهرماً فشيخاً فيموت ، وغاية مافكروا فيه أنهم عرفوه بأنه حيوان ناطق أو ضاحك أو ميال أكثر من غيره للتقدم والتطور ، عن طريق الشر أو الخير ، فإذا بدرت بادرة من بوادر النبوغ أو التمايز سارعوا فوصفوها بلوثة أو خبل أو نقص فى القوى العاقلة ، ومازالوا كذلك أمداً طويلا حتى أمكنهم التفريق بين الاختلال المرضى الناشىء عن عاهة فى الدماغ أو الجهاز العصبى ، وبين التمايز الذهنى الدال على النبوغ .

فلنبادر بالقول إن جيمس جويس كان عبقريا سليم التفكير ، نشأ فى أرض معذبة وشعب ذليل ثائر ، واهتدى الى نفسه فنجا بها ، مخاطراً مجازفاً ، وعكف على مواهبه فنماها ، وانقطع لفنه فأتقنه وقد امتلأت نفسه بهذا الفن ، فأثر العزلة فى الغربة ، وأخذ ينظر الى الحياة من نافذة عزلته ، يشهد مناظر الحياة كمن يشهد مناظر الصور المتحركة ، وينظر الى الماضى كمن يزور متحفاً ، ولكنه لايحفل بما يرى ، ولا يقف عنده ولا يتعلق به ، إلا أن يكون مصوراً لأثر من آثاره الفنية ، ومرجعاً للصورة التى يشاء تسجيلها وتثبيتها ، فهو حينئذ يستوحيها ويستقصيها ويصدر عنها فيما يرسم ويصف . إنما يقف منها موقفه من الطبيعة غير الواعية ، يتخذها مادة لفنه دون أن يشاركها بعقله وقلبه وشعوره فيما يطرأ عليها من الأحداث وما يلم بها من الخطوب والكوارث .

وهذا هو مافعله جويس فى وطنه أولا ، ثم فى البلاد التى نزح اليها ، وقد أعانه تكوينه الذاتى وتركيب عقله ، فقد كان دماغه وذاكرته ووعيه كمخازن العبور والاجتياز « ترانزيت » ، التى تتكدس فيها البضائع الى أن ينقل كل منها الى مقره .

وقد دلتنا طريقة عمله على صحة هذا الرأى ، فإنه كان يحمل

دائماً نتفاً من الورق يدون فيها خواطره ، ويصوغها جملا ، ويعمد الى ذلك سواء أكان راجلاً أو راكباً و مقيما أم ظاعناً ، منشغلا أو لاهياً ، هادئاً أم ثائراً ، ضاحكاً أم باكياً ، مبسوطاً أم مقبوضاً ، فهذه القصاصات من الورق لم تفارقه لحظة عين فهو يكسها فى جيوبه ، ثم يعمد الى تنظيمها وترتيبها ، ومازال يكسها حتى أربت على ألف ألف ورقة ، وهذه هى مخطوط عواس عانى فى نقلها وتبييضها ووضعها فى مواضعها ماعانى ، وهى الكنز والذخيرة التى انقطع بسببها عن الدنيا ، وآثر العزلة والانقطاع ، وتحمل الحاجة الملحة ، ومارس الصبر الطويل ، وقد سلك هذه الخطة من فجر القرن العشرين وهو فى العشرين من عمره ، وفى نفس هذه الفترة من الزمن ، كان الأدب المتعارف عليه فى زمنه مزدهراً ، والأدباء المعاصرون له فى وطنه وفى غيره من الأوطان لايحفلون بالفن كما حفل ، ولا يتكلفون فى سبيله ماتكلف ، وإنما يؤثرون أنفسهم بالخيرات ويستمتعون فى ظل الدول المستعمرة بما يتاح لهم من الحرية ، ليحيوا كما يحبون ، وينعموا كما يقدرون ، ويكتبوا لا مايشاءون ، ولكن مايشاء الطابع والناشر والوراق والقارىء ابن السبيل ليربحوا ماداموا خاضعين طائعين ، راضخين للقيود التى

قيدهم بها المجتمع ، وراضين بما قسمته لهم شركات النشر والطبع، متطلعين لما يجود به عليهم النقاد المأجورين فى مقولات مأجورة تنشر فى صحف مأجورة ، فى أوطان ذليلة أو عزيزة ذات عواصم كبرى كل مافيها للبيع أو للإيجار سواء أكان أدباً أم عرضاً وشرفاً أم حرية أم دنيا أم بلاغة ، أم ذمة وضميراً .

وفى هذا الخضم المضطرب تفتحت بصيرة جويس فى العشرين من عمره ، وتبين أن حريته معرضة للخطر ، وأن ثقافته المكتسبة والمرتقبة معرضة للزوال ، وأن فنه معرض للاندثار ، وأن آماله مآلها الضياع ، وعليه أن يدفع عن نفسه أخطار الابتلاع والاهتضام التى تتهدده من التسلط المطلق للجماعة على دقائق الحياة الاجتماعية فى فترة الانحلال الموصوفة بالعصر الفيكتورى نسبة الى ملكة الانجليز التى عمرت وطال عمرها أكثر مما ينتظر الناس ، فرأى جويس نفسه مخيراً بين اثنتين ، إما أن يفنى ويختنق فى ضباب الامبراطورية ، وإما أن يتشبه بالعجزة والطامعين والمغرضين والقانعين والمنافقين أمثال برنارد شو ولورنس وتوماس هاردى ولورد تنيسون شاعر القصر وغيرهم ، فيشارك أصحاب السياسة والمال والجاه فى الدفاع عن تراثهم والقيام دونه وحمايته

ليطعم آخر اليوم من فتات موائدهم .

وإما يهرب ليعتزل ويذل غريباً ليعتز فنه ، أى يفر بالأمانة والوديعة والكنز الذي وهبه الله ، مخاطراً مغامراً فى وقت من أحرج الأوقات ، وهو يواجه الفقر والألم ، ويترك وراءه قومه وأهله ، ومستقبلا ربما يكون باسماً لو أنه رضى أن يسلك رسغه ويده وعنقه فى القيود الفضية أو الذهبية التى أعدت لأمثاله ، فاختار طريق الفرار والهجرة والعزلة والضيق والضنك ، لينجو بفنه وهو أغلى من حياته .

فلما هاجر وابتعد عن وطنه ووطن المستعمرين المتألهين ، احتفظ بعزلته واستأثر بوحدته ، واعتصم بفنه وإيمانه ، ينظر الى اضطراب العالم من حوله ، كما ينظر الى أشعة الشمس حين تشرق ، وإلى ظلام الدنيا حين تغرب ، وإلى أمواج البحر وهبوب الريح وسكون الغاب ، فخلص لفنه ونظر الى الحياة الإنسانية كما ينظر الى الطبيعة الصامتة يتخذها مادة لفنه ، وهذه هى الطريقة الخارجة عن الذات ، المقصورة على درس الحياة بغير تأثر بها Ob-jective ، ولهذا انفرد كتاب جويس (يوليسيز) وانقطع قول من زعموا أنه جزء مكمل للكتاب الأول « حياة الفتى فنانا » The Artist

as a young man . لأن هذا الكتاب الأول كان محاولة صادقة فى تدوين ترجمة حياته فى شبابه ، أما كتاب عولس فهو دراسة فريق من الناس فى زمان ومكان وانفعالات وعواطف لا تمت اليه بصلة ، وما أكبر الفرق بين الفكرتين والطريقتين والغايتين والوسيلتين ، ولا سيما وأن هذا الفريق هم الدرجة النازلة من الطبقة الوسطى من أهل دبلين .

ولكن هذه العزلة العولسية ، لم تكن ما يسميه الأدعياء والمتصنعون عزلة «البرج العاجى» لدلالتها على الترفع والكبرياء والاحتجاب عن الناس ، ليفوز صاحبها بالشهرة عن طريق التأثير فى أذهان العامة ، وإنما كانت عزلة ضرورية لفترة معينة فرضها على نفسه ليتقن عمله ، وإنما هاجر واختار الغربة حرصاً على مواهبه وضناً على عواطفه ممن يغتالون أعمار النوابغ وعواطفهم ويفترسونهم ويستغلونهم فى أتفه الآراء ، وحرصا على كرامته وخوفاً من الإغراء ، وفراراً من الخصماء الذين قد تمتد اليه أيديهم فتطوله بأذى ، وإشفاقاً من أدواتهم وآلاتهم ممن ينغصون الحياة على النوابغ فى شبابهم ، فيقتلون الفرخ بعد الخروج من البيضة وما يزال أخضر الزغب ، قبل أن يقوى منقاره ويطول ريشه ،

وتشتد قوائمه.

ولهذا قلنا إن جويس لم يكن زاهداً فى الحياة ، ولم يكن طفيلياً يعيش على كسب سواه ، ولم يكن متكبراً متعالياً مترفعاً على قومه أو غيره من الأقوام ، بل كان يخالط الناس ويعاشرهم ، ويندمج فيهم أحياناً ، وينتفع بهم وينفعهم ويهادنهم ويهاجمهم ويدافع عن نفسه ، ويضحك منهم ويتهكم عليهم ، ولكن دون أن يجعل لشىء من هذا كله أثراً فى تعطيل فنه أو انصرافه عنه ، أو التضحية به فى سبيل مال أو شهوة أو منصب أو مجد موقوت ، أو شهرة قبل أوانها .

وقد سعى الى لقاء مشاهير عصره فى وطنه وفى غير وطنه وأفاد منهم وتأثر بهم بالقدر الذى رآه ملائماً أو كافياً دون أن يخضع لرأى واحد منهم .

وكان يخاصم فى العدل وفى الحرية وفى الدين والإلحاد وفى السياسة ويقاضى بعض الناس فى نزاع على حق له سواء أكان مالاً يملكه أو بيتاً يسكنه ، ويناصب الناس العداء فيما شئت من هذه المشكلات الإنسانية التى لاتنقضى والتى تتجدد كل يوم ، ولا سيما فى فترة الحرب العالمية ، ولكن كل هذه المظاهر والأقوال

والأفعال التى اقتضتها الحياة ، لم تمتد به الى التماس النفع من قول أو عمل له علاقة بالمرافق العامة ، أو صلة بالسلطان من قرب أو من بعد ، لأنه لم يكن فى وطن مستقل يتصرف بنوه فى شؤونه ، ولأن الانجليز لاينتفعون بمواهب أمثاله إلا إذا وضعها تحت أقدامهم ، كما صنع جورج برنارد شو فسخر مواهبه لخدمة الامبراطورية .

ولأن جويس فى البلاد التى نزح اليها (فرنسا وسويسرا وايطاليا) ، لم يلتمس عملاً يرتزق به سوى التدريس ، وهذه البلاد لاتوظف أجنبياً إلا إذا كان جاسوساً ، ولم يكن عنده مال موروث يغنيه عن الناس ، حتى فى أحرج الأوقات ، فقد اقترض ثمن تذكرة القطار للسفر من باريس الى دبلين ليدرك أمه قبل وفاتها من أحد تلاميذه (موسيو جوزيف دوس وهو الذى سماه فى عولس الآنسة دوس) .

ولكن هذا البعد عن المرافق العامة وعن الصلة بالسلطان من قرب أو من بعد، وَقَتْه وحمته من التأثر بالخطوب التى يقتضيها الاتصال بالسلطان والاشتراك فى الحياة العامة ، دع عنك الحاجة للنفاق والمداجاة والرياء التى تقتضيها تلك الصلة فى وقت الرخاء أو

الطمأنينة ، فنعم مافعل جويس حين نفض يده من الحياة العامة نفضاً ، واعتزل الحقائق الواقعة اعتزالا .

وكان جويس أحق الناس بهذا الاعتزال لأنه صاحب فن نادر ممتاز ، وكان من دقة الإحساس ورقة الشعور وصفاء الطبع واعتدال المزاج وحب الموسيقى وحب الأسرة والحدب على أولاده بما لايستطيع معه أن ينسى نفسه ولا أن يجحد ما يطرأ عليها من ألوان المشاعر المختلفة والعواطف المتضاربة والانفعالات والانطباعات المضطربة ، حين يتصل بظواهر الأشياء وحقائقها ، وهو ما تقتضيه المرافق العامة والصلة بالسلطان والإلحاح فى طلب الرزق بكل الوسائل ، حتى تتوافر له كل أسباب النعيم ، دون القناعة التى تصون كيانه وتحفظ كرامته .

ولكن هذا التعفف وتلك القناعة ، لم تمنعه عن دراسة عصره وطبقات معاصريه ، والمشاركة فى الحياة الواقعة فى وطنه وفى غيره ، حين كانت جداً وكداً ومواجهة للمشكلات ، وحين كانت عبثاً وهزلاً ومجوناً ومقارفة للموبقات (كما يصفها فى الدرامه ص ٤٠٨ - ٥٧٠) ، وهو ماوقع فى مدينة الليل أحد أحياء دبلن ، فكان جويس بدون منازع مرآة للعصر الذي عاش فيه ، ولكنها مصقولة

أحسن صقل وأفضله ومجلوة أجمل جلاء وأوضحه .

نعم . كان جويس ثائراً حانقاً حاقداً مغيظاً ، ولكن شيئاً من هذا لم يظهر فى كتابه على أنه عاطفة شخصية لمؤلفه ، كان ثائراً حانقاً مغيظاً لا غضباً لنفسه أو لذويه ، أو حسداً لغيره أو ندماً على ما فاته ، وإنما كانت غضبته لحرية وطنه وقومه وأمته وذلك حين شب وأدرك أن المستبدين من غير أمته قد تسلطوا على حياة شعبه واستأثروا لأنفسهم وخاصتهم بالسلطان كله ، ولم يشركوا الشعب فى قليل أو كثير من هذا السلطان ، وحرموا الأمة من خيراتها وأرغموا كثرتها على الفرار والهجرة الى قارة أمريكا النائية ، وسلبوا نعمتها ، وإنما قدسوا سلطانهم ، ليقدسوا أنفسهم ، واحتكروا الأمور العامة وحظروا على غيرهم أن يشارك أو يخوض فى ذكرها ، وحاربوا الزعماء المخلصين ودبروا لهم المؤامرات حتى أوقعوا بهم ولم يترفعوا عن نوع تلك المؤمرات أو لونها .

وقد دامت هذه الحال مئات السنين ، ولكن جويس لم يشهدها كلها بالطبع وانما قاس مالم ير من الماضى على الحاضر الذى لابسه وكابده ، وتكهن بالمستقبل الذى سوف يراه إن هو أقام على الذل والهوان فى بلده ، فكيف لا يثور جويس عندما يرى طبقة

ضئيلة تستأثر بالحياة العامة ، فتتنعم بالسلطان والقوة والمال والثقافة وما يلائمها ، وشعباً مسخراً لخدمة هذه الطبقة الضئيلة لاحظ له من سلطان ولا من ثقافة ولا من حرية ولا من قوت غير البطاطس للطعام وروث الأنعام للوقود ، وأى قيمة للحياة فى هذا الوطن لمن يستطيع أن يتحرر بالهجرة ليعيش وينتج مايعود على نفسه وعلى وطنه بالخير ؟